التماسك النصي في سورة الكهف

م.م. أحمد جاسم ثاني
جامعة البصرة/ كلية التربية

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم ملكه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين البشير النذير سيدنا محمدٍ وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ...

أما بعد ... فقد توجه البحث اللغوي في الآونة الأخيرة إلى تحليل النصوص بوصفها أكبر وحدة قابلة للتحليل، فتخطّى بذلك حدود الجملة إلى محيط النص؛ لأن اجتزاء الجملة وعزلها عن سياقها في النص يعد قصوراً في الدراسة اللغوية.

وقضية التماسك النصي من القضايا التي اهتم بها (علم اللغة النصي) بوصفها الشرط الرئيس لكون كلام معين نصاً، فبها نفرّق بين النص واللانص.

والنص القرآني أوضح نصٍ تتجلى فيه مظاهر التماسك النصي، فهو النص الوارد عن الله سبحانه وتعالى، البليغ في لفظه ونظمه ومعناه وتماسكه وانسجامه، ولاشك في أن هذا النص يحتوي على وحدة واحدة مترابطة.

ويهدف البحث إلى الكشف عن التماسك النصي في سورة الكهف، وذلك للوصول إلى الدلالات القرآنية والمضامين العالية في هذه السورة المباركة.

وتبرز أهمية اختيار هذا الموضوع في ضوء جملة من الأمور، منها:

١- ندرة الدراسات النصية التطبيقية للنصوص العربية ولاسيما القرآن الكريم.

٢- الإسهام في ميدان التطبيق في علم اللغة النصي.

٣- خدمة النص القرآني في فهمه وتوضيحه.

أما اختيار سورة الكهف تحديداً؛ فلكونها تحتوي على أربعة قصص مختلفة ومتقابلة، يجمعها محور فكري واحد، يتمثّل في (نبذ زينة الحياة الدنيا)، وهو ما يجعل نص هذه السورة متماسكاً، فيدعو للتأمل والتدبر.

ولقد عمد البحث إلى دراسة هذه السورة على وفق المنهج النصي الذي يدرس النص بوصفه كلاً متكاملاً ووحدةً لا تتجزأ، مستعيناً بالمصادر والبحوث الحديثة المختصة بذلك.

التعريف بالتماسك النصي:

يأتي التماسك في اللغة مقابلاً للتفكك، وهو بهذا يعني الترابط التام، والشدة والصلابة[١]. جاء في اللسان: ((المَسِيك من الأَساقي التي تحبس الماء فلا يَنْضَحُ وأرض مَسِيكة لا تُتَشِّفُ الماءَ لصلابتها وأَرض مَساك أيضًا))[٢].

وفي تاج العروس: ((وفي صِفَتِه صَلّى اللّهُ عليهِ وسَلّمَ بادِنٌ مُتَماسِكٌ أَرادَ أَنّه مَعَ بدانَتِه مُتَماسِكُ اللَّحْم ليس مُسترَخِيَه ولا مُنْفَضِجَه، أي أَنَّه مُعْتَدِلُ الخَلْقِ كأَن أَعْضاءهُ يمْسِكُ بعضُها بعضًا))[٣].

وفي الأساس: ((أمسك الحبل وغيره، وأمسك بالشيء ومسك وتمسَّك واستمسك وامتسك. و(أمسك عليك زوجك) وأمسكت عليه ماله: حبسته، وأمسك عن الأمر: كفّ عنه. وأمسكت واستمسكت وتماسكت أن أقع عن الدابة وغيرها. وغشيني أمرٌ مقلق فتماسكت. وفلان يتفكّك ولا يتماسك، وما تماسك أن قال ذلك: وما تمالك، وهذا حائط لا يتماسك ولا يتمالك. وحفر في مسكة من الأرض: في صلابة))[٤].

وعلى هذا سائر المعاجم، فلفظ "التماسك" فيها يتوجه إلى الدلالة على الصلابة والمتانة، وترابط الأجزاء بعضها ببعض.

وفي علم اللغة الحديث يعني التلاحم بين أجزاء النص الواحد، بحيث توجد علاقة بين كل مكون من مكونات النص وبقية أجزائه، فيصبح نسيجاً واحداً، تتحقق فيه علاقات القصد والخلفية المعرفية بالمبدع والمتلقي[٥].

التماسك النصي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة

لقد أدرك اللغويون العرب أن النص يجب أن يكون وحدة واحدة، وذكروا بعض أسس التماسك النصي التي أقام عليها العلماء المحدثون أصول نظرية تماسك النص، وإن لم يؤسسوا نظرية عربية في هذا المجال. وإذا كانت فكرة التماسك النصي تقوم على تحقيق الانسجام بين وحدات النصوص وعناصرها في ضوء العلاقات التي تربط مكونات النص بعضها ببعض وتجعل النص موحداً، فإن البلاغيين العرب اعتنوا بالكشف عن الترابط القائم بين سلسلة الأقوال المؤلفة لفقرة من العمل الأدبي[٦].

ويمكن القول إن تراثنا البلاغي زاخر بكثير من الدراسات التي تهتم بصناعة الخطاب الأدبي، فقد أفاض علماؤنا في الحديث عن مظاهر التماسك النصي، معبرين عن ذلك بمصطلحات كالحبك والسبك،

والتناسب، والالتحام، والارتباط. وكان النص القرآني مجال دراستهم سواء تعلق بالجانب الدلالي أو الجانب البلاغي الجمالي، في حين اعتنت الدراسات النصية الحديثة بدراسة النصوص في سياقها الاجتماعي، فغلب الجانب التذوقي على الدراسات البلاغية القديمة[٧].

وتعد الجملة أكبر الوحدات اللغوية التي انصبَّ عليها الدرس البلاغي والأسلوبي القديم، وإن تجاوزت الدراسة في البلاغة القديمة نطاق الجملة، فلم تزد على دراسة الترابط القائم بين جملتين، فيما يعرف بمبحث "الفصل والوصل" في البلاغة العربية، وكذلك ما يتصل بباب الإيجاز والإطناب والمساواة، حيث ينصب الحكم في هذه المباحث على جملة الكلام، غير أن هذه الدراسة لم ترقَ إلى معالجة النص بوصفه وحدة كلية شاملة[٨]؛ ولذلك لم تتجاوز البحوث البلاغية القديمة المستوى التركيبي ((إلى النطاق الدلالي للفقرة الكاملة أو المتتالية النصية، فضلاً عن أنه لم يشمل نصاً تاماً في البلاغة القديمة، بينما يقوم علم النص بتناول بناء فقرة أو فصل من النص أو النص كله))[٩].

والفكرة الرئيسة في علم اللغة النصي: أن ((النص يعد الموضوع الرئيس في التحليل والوصف اللغوي))[١٠]، فالنظرة إلى الجملة باعتبارها أكبر وحدة في التحليل غير كافية في الدرس اللغوي، فلا بد من النظر إلى النص باعتباره وحدة لغوية كبيرة تفهم الجملة في إطارها[١١].

فالتماسك النصي هو الكيفية التي تمكّن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النص ومعها يصبح النص وحدة اتصالية متجانسة[١٢]، وهذا الادراك يكون عبر خاصيتين ((أولهما خاصية الاتساق وهي ذات طبيعة سطحية شكلية، أما الخاصية الثانية فهي خاصية الانسجام وهي ذات طبيعة دلالية. وهاتان الخاصيتان تتضافران معاً لتحقيق التماسك النصي))[١٣].

نخلص مما تقدم أن التماسك النصي مقولة جوهرية في مفاهيم اللسانيات النصية، ويحتل موقعاً مركزياً في الأبحاث والدراسات التي تُعنى بتحليل النصوص؛ لأنه يرمي إلى غاية بعيدة، وهي توظيف الآليات النحوية في الربط بين أجزاء النص ومن ثم فهم المعنى عبر رؤية متماسكة لا تقتصر في تحليلها على الجملة أو مجموعة الجمل[١٤].

وتهتم لسانيات النص بقضية التماسك والانسجام؛ لأن ما يجعل النص نصاً ويحقق له تماسكه جملة من العناصر اللغوية اللفظية كالإحالة التي يقسمها علماء اللغة على قسمين: قبلية تربط الملفوظات بما قبلها، وبعدية تربطها بما سيأتي، وهي تسهم بشكل فعَّال في ربط السابق من أجزاء النص باللاحق. والتكرار، حيث تؤدي إعادة اللفظ إلى تأكيد ما في النص من معاني، والتوابع.

التماسك النصي في سورة الكهف:

تمثل هذه السورة حجماً متوسطاً، وتتناول موضوعاتٍ مختلة خلافاً لبعض السور التي تتناول موضوعاً واحداً، كما تضمنت كلاً من النثر العام والنثر القصصي. ومن يقرأ هذه السورة يلحظ وجود خيط فكري عام يوحد بين موضوعاتها المختلفة، هذه الموضوعات التي تناولت الحديث عن الرسالة والدنيا والآخرة بأسلوب عام، وأما أسلوب القصة فتمثل بقصص أهل الكهف وذي القرنين وموسى وغيرها من الأحداث والمواقف[١٥].

أما الخيط الفكري العام الذي يجمع بين هذه الموضوعات المختلفة ويمثل الهدف من بنائها فهو (نبذ زينة الحياة الدنيا)، وكل هذه الموضوعات تصب في هذا الرافد الفكري[١٦].

عناصر التماسك النصي في سورة الكهف:

اولاً – التكرار:

يُعَرَّف التكرار بأنه إعادة أو استرجاع للألفاظ أو الجمل أو الفقرات، ويتم ذلك باستحضار اللفظ نفسه أو بمرادف له، بهدف تحقيق التماسك النصي بين أجزاء النص[١٧]. ويأخذ التكرار عدة أشكال في النص؛ كتكرار الحروف، والكلمات، والعبارات، والجمل، والفقرات، والقصص كما هو شائع في النص القرآني[١٨].

ويعد التكرار أو التكرير ظاهرة لغوية اتسمت بها اللغات الإنسانية، ولاسيما اللغة العربية، وقد تعددت الدراسات حوله قديماً وحديثاً، غير أن الدراسات اللغوية الحديثة أسهمت بقسط كبير في مناقشة علاقة التكرار بالتماسك النصي.

وللتكرار أسبابه وغاياته، فقد يكون من باب التأكيد اللفظي في كثير من الأحيان إلا أنه في القرآن الكريم قد يأتي على صورة غير مألوفة فيبدو واضحاً أن لهذا التكرار مقصداً آخر غير التوكيد، وقد يكون مبرزاً للبعد النفسي معيناً على الكشف في خباياه وأسراره.

وسورة الكهف تتكون من خمس قصص، مما يدل على أن هناك استمرارية تحققت في هذه القصص التي حققت بدورها التماسك النصي، وهي الغاية المرجوة من كل قصة، فكلها تصل إلى نتيجة واحدة تتمثل في انتصار الخير والحق. ويمكننا أن نعد هذه الاستمرارية التي تكررت في القصص الخمس نمطاً جديداً من التكرار، وهو ما يعرف "بالتكرار الدلالي"، وله دور في تحقيق التماسك النصي: فتلك الدلالة قد تكررت في وحدات السورة كلها.

مثال ذلك تكرار كلمة (إذ) في قصة أهل الكهف وكما في الآيات الآتية:

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ...﴾ (الآية: ١٠).

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ (الآية: ١٤).

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ...﴾ (الآية: ١٦).

﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ...﴾ (الآية: ٢١).

ففي البداية ارتبط لفظ (إذ) مع الحدث الأول في القصة لحظة (إذ أوى الفتية إلى الكهف)، وتوالت الأحداث في سرد القصة فكان كل عمل أساس يقتضي حركة معينة من الفتية تلازم ظهور (إذ)، فالحركات بعد أن أووا إلى الكهف، (إذ قاموا فقالوا)، و(إذ اعتزلتموهم)، ويبدأ بعد ذلك عرض القصة بالتفصيل حتى تكتمل القصة بعد أن عثر عليهم القوم فظهرت في خاتمة القصة (إذ يتنازعون أمرهم).

ويلاحظ على التكرار هنا أنه يشكل عنصر بناء وربط، فيلازم السرد وهذا مظهر في بنائية الأحداث، وعنصر ربط بين أول الأحداث ونهايتها، فتظهر القصة لوحة واحدة منتظمة الأطراف والأجزاء، مما يشعر المتلقي بوحدة الموضوع التي يشعر معها بالمتعة والتركيز وعدم التشويش الذهني.

وتظهر قصة جديدة في المثل الذي فيه قصة إبليس مع آدم وأول ما تبدأ به (وإذ) لتشكل في نفس السامع إحساساً بتكون قصة جديدة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...﴾ (الآية: ٥٠).

وفي قصة الرجلين تظهر (إذ) في مركز الأحداث عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ...﴾، لتشكل عنصر لفت انتباه إلى مغزى القصة وهو التذكير بقدرة الله، وربط النعم بمشيئته تعالى.

ولم يقف الأمر عند حد القصة الواحدة بل عاد اللفظ (إذ) ليشكل بداية جديدة لقصة سيدنا موسى (ع)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (الآية: ٦٠)، فتدخل أحداث القصة حتى تصل إلى معلم بارز وحدث مهم، كان موسى (ع) في لهفة وتشوق له فظهرت (إذ): ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ...﴾ (الآية: ٦٣)، فارتبطت مع الحدث الذي شكّل نقطة مركزية في القصة.

ومع الانتقال إلى الأحداث في القصة الجديدة (موسى مع العبد الصالح) وفي تنوع في الربط تظهر لنا قصة جديدة، وذلك بتكرار عبارة: (فانطلقا حتى إذا) في مراحل الحركة الرئيسة، قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ...﴾ (الآية: ٧١)، وفي قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ

...﴾ (الآية: ٧٤)، وفي قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ...﴾ (الآية: ٧٧)، تشكلت من الأحداث الثلاث التي تتابعت في الآيات القصة بعناصرها الموضوعية والشكلية، فكان عنصر الحركة الذي يتفاعل بين الأشخاص والأحداث ليوصل ذلك إلى الذروة القصصية. فمن زاوية يكون الربط الخارجي الشكلي للقصة مع قدرة أسلوبية فائقة في اختزال الزمان والمكان في بؤرة الحدث، فقد تكون أحداث ما بين هذه المراحل ولكن القارئ لا يشعر بقطع للأحداث وربما لا يريد أن يعرفها لأنه متلهف كما كان موسى (ع) أيضا لمعرفة ما يحدث، فالمفارقة في القصة والشعور بالدهشة والتركيز على الحدث الرئيس جعلت من بقية الأحداث الثانوية التي لم تذكر مبرراً لحذفها من السرد.

فمع كل تكرار كان موسى والسامعون يزدادون إثارة حتى تقف الأحداث وتثبت الصورة لتنكشف الأسرار ولتهدأ النفوس بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ...﴾ (الآية: ٧٨).

وثمة عبارة جديدة، جاءت متكررة لتفسير وتأويل ما حصل من أحداث، وهي عبارة (أما) قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ...﴾ (الآية:٧٩)، ويتبعها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (الآية:٨٠)، ويماثلهما قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ ...﴾ (الآية:٨٢)، وهكذا تنتهي قصة موسى مع العبد الصالح بهدوء مع شعور داخلي لو أن أحداثاً أخرى تأتي فتكشف لنا فنشعر بتلك المتعة النفسية والفكرية والتجربة التي قد لا تمر علينا مثلها إلى يوم يبعثون. فالأدب حقاً يجعلك تعيش تجربة لم تمر بها وقد لا تمر بها إلا من خلال الإبداع الأدبي الفني.

وتعود (أما) بفاعليتها التي نشطت في سياق قصة الخضر مع موسى (ع)، في قصة ذي القرنين، قال تعالى: ﴿... قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (الآية: ٨٦)، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الآية: ٨٧)، ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الآية: ٨٨)، لتفيد (أما) التفصيل في الجانب المعنوي، وعامل ربط بنيوي في بناء الوحدة الفنية في داخل السورة، ومكوناتها القصصية، فضلاً عما شكله التكرار من وقع إيقاعي بين الصيغتين المتقاربتين (إما) و(أما)، في تعاقب ثنائي رتيب.

إن القرآن الكريم على الرغم من اتساعه وتعدد القصص والمواضيع التي فيه، فإنه يتسم بالوحدة الموضوعية الكبرى والعضوية البنائية في نصه ولغته، فقد ورد في سورة الكهف في الحديث عن الفتية قاعدة فكرية اعتقادية في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن

نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الآية: ١٤)، هذه الحقيقة الكبرى وأساس الدعوة وكل أمر غيره سوف يكون عبثاً ولهواً وابتعاداً عن الحقيقة (شططاً) ولن يفلح صاحبه ولن يهتدي إذاً أبداً.

فمع هذه القاعدة الكبرى ظهرت كلمة (إذًا)، قال تعالى: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾، فإذا دعوا غير الله فستكون النتيجة والجواب (إذاً)، يحدث أمر يظهر في قوله تعالى: ﴿... أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الآية: ٢٠)، وفي قوله تعالى: ﴿... وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الآية: ٥٧)، فالعلاقة الترابطية بين القاعدة والحالات المترتبة أو المتعلقة بها ظاهرة من خلال التركيب المتكرر، فإذا لم يحرص المؤمنون وتمكن الكفار من رقابهم فلن يتمكنوا من العبادة، وترتب على ذلك ربما أخرجوهم من الملة في قوله تعالى: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾، هذا إذا كان السبب خارجياً من الأعداء وقد يكون السبب داخلياً فيعرضون عن منهاج الله والقاعدة الكبرى للإيمان والهداية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ...﴾ (الآية: ٥٧)، فتكون النتيجة: ﴿فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الآية: ٥٧).

ومن الألفاظ التي تكررت في أكثر من موقع، وكانت تمثل عنصر ربط ولفت انتباه ما نجده في قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ...﴾ (الآية: ١٥)، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ...﴾ (الآية: ٣٩)، لقد تكررت (لولا) في الآيتين، وفي موقفين متماثلين تقريباً؛ موقف المؤمنين واستغرابهم من عمل الكافرين وطبيعة تفكيرهم وسلوكهم، فالأداة (لولا) في الآيتين فيها حض من المؤمنين لغيرهم أن يتخذوا التفكير السليم في الاعتقاد المبني على أساس وبرهان، وعلى السلوك والكلام القويم الذي يربط النعم بالمنعم والقدرة بصاحبها الحقيقي ألا وهو الله سبحانه وتعالى، فالأسلوب في الحالتين فيه طلب، ولكنه طلب بلين، وهو أسلوب يكشف عن نفسية المؤمن، فهو حتى مع الكافر يطلب بلطف واتزان.

وتختتم سورة الكهف بقصة ذي القرنين الذي أعطاه الله التمكين في الأرض ومن كل شيء سبباً، فأسباب التمكين المتعددة والمتنوعة من الله ولذا كانت الرابط الذي يربطه في كل أحواله وفي كل مكان وصل إليه، ومع كل فعل قام به، إذ بدأت القصة مع لفظ (سبباً) وحفظ المؤمن (ذو القرنين) السبب الذي وهبه له الله (فأتبع سبباً)، وبدأ بالحركة والعمل فبدأت أحداث القصة تتوالى، فيظهر لنا ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الآية: ٨٥)، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ...﴾ (الآية: ٨٦) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الآية: ٨٩)، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ...﴾ (الآية: ٩٠)، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ (الآيتان: ٩٢ –٩٣)، وتكرر في قوله تعالى: ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا

سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الآية:٩٦)، فمع كل حدث مهم من أحداث القصة ظهرت العبارة لتشكل لازمة لفظية، ثم (أتبع سبباً)، فتحقق أبعاداً فنية جمالية وموضوعية في آنٍ واحد، أما من الوجهة الموضوعية فإن المؤمن الذي يعطيه الله العزة والتمكين والقوة والنصر يتمسك بأسبابها فلا تنقطع عراها، ولذا يبقى أثره خالداً إلى يوم يعلمه الله، فبهذا يكون الدرس وتتحقق العبرة، ومن الناحية الفنية تشكل (أتبع سبباً) عنصراً من عناصر الربط والتطوير الفني، فكما كان الربط النفسي مع أحداث القصة كان الربط أيضاً موافقاً للبناء القصصي والتطور المرافق للأحداث. فمع عطف الأسباب إلى بعضها كان تطور الأسلوب بخاتمة حميدة وهي الاعتراف التام والصريح بنعم الله عليه، فقال الله تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ...﴾ (الآية: ٩٥).

ومن جهة أخرى فإن التكرار المنتظم الذي تحقق في سورة الكهف له انعكاسات وتأثير على الجوانب المختلفة في النص، ومن بينها الجانب الصوتي فقد انعكس أثره بشكل جلي، وحقق إيقاعاً خارجياً وداخلياً في آنٍ واحد، وشكّل موسيقى تشنف الآذان لسماعها؛ فالتكرار الجميل المتناغم يصبح قاعدة صوتية تطرب لها الأذن ويشغف بها الفؤاد.

ثانياً- الإحالة في الضمائر:

تختلف حركية الضمائر باختلاف الموضوعات أو القصص التي وردت في السورة، فقد اشتملت على قصص أهل الكهف (من الآية ٩ إلى الآية ٢٦)، وتعقيب عليها (من ٢٧ إلى ٣١)، ثم قصة الرجلين (من ٣٢ إلى ٤٤)، وتعقيب عليها من (٤٥ إلى ٤٩)، ثم تأتي الإشارة إلى قصة السجود لآدم (في الآية ٥٠)، والتعليق عليها (من ٥١ إلى ٥٩)، ثم تليها قصة موسى مع فتاه والخضر (من ٦٠ إلى ٨٢)، وأخيراً قصة ذي القرنين (من ٨٣ إلى ٩٩) ثم التعليق عليها (من ١٠٠ إلى ١١٠)، إن ما يربط بين هذه الموضوعات – على تنوعها – من حيث دلالتها هو تأكيد نصرة الخير على الشر، أو الجانب المؤمن على غير المؤمن، ومن ثم فالقضية واحدة والقصص مختلفة.

تتحدد الوحدة الدلالية الأولى (من الآية ١ إلى ٨)، وفيها حديث عن حمد الله على إنزاله الكتاب، وعن صفات الكتاب، وعن وظائفه، وعن موقف الرسول (ص) من تبليغ الدعوة. فالضمائر التي أحالت إلى الله تعالى هي: (الذي – أنزل – عبده – يجعل – لدنه – به – إنا – جعلنا – لنبُلوهم – إنا)[١٩]، وقد ورد لفظ الجلالة (الله) في أول الآية الأولى صراحة في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ

يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ (الآية: ١)، ونلاحظ أن المرجعية في هذه الآية هي مرجعية داخلية سابقة؛ لأن الضمائر ذكرت متأخرة عن المحال إليه.

وإذا انتقلنا إلى العنصر الثاني من الآية نفسها نجد لفظ (عبده) وهي صفة من صفات الرسول (ص)، وردت بصراحة وذكرت داخل النص قبل الضمائر التي تحيل إليه[٢٠]، ثم جاءت الضمائر في الألفاظ الآتية: (لينذر – ويبشر – وينذر – فلعلك – نفسك)، ولهذا فالمرجعية داخلية سابقة.

أما العنصر الثالث فهو لفظ (الكتاب)، وله إحالات في (له، وهذا)، والإحالة هنا داخلية سابقة، تشبه الإحالة للعنصرين السابقين.

والإحالة إلى هذه العناصر لا تقف عند حدود هذه الوحدة فحسب، بل تتجاوزها، فإذا تتبعنا سياق السورة وجدنا الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة مستمرة على مدار السورة بأكملها، وذلك في خمسين آية بالضمائر، غير الأسماء الظاهرة.

فكل هذه الإحالات تحيل إلى لفظ (الله) تعالى المذكور صراحة في الآية الأولى، وعليه فمرجعية الضمائر المحيلة عليه داخلية سابقة.

إن كثرة الضمائر التي تحيل إلى اسم واحد يؤكد حقيقة مهمة، تتمثل في وظيفة الضمائر في تحقيق التماسك النصي بين آيات السورة، وبين الوحدات الدلالية، كما يؤكد الاستمرارية، وعدم استقلالية الوحدات عن بعضها، فقد ذُكِر في الآية الأولى، وأحيل إليه في خمس مواضع، أما العنصر الثاني "ذكر رسول الله (ص)" فقد ورد في أكثر من عشرين آية من السورة موزعة (من الآية ١ إلى الآية ١٠٦)، وهو ما يؤكد الأمور التي أكدها انتشار الإحالات التي تحيل إلى لفظ الجلالة، أما العنصر الثالث "الكتاب" فقد ورد بلفظه في الآيات: (١، ٢٧، ٥٦، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩)، وبالضمائر في الآيات: (١، ٦، ٥٤)[٢١].

وفي ضوء حديثنا عن الإحالة للعناصر الثلاثة التي ذكرت في الآية الأولى (مفتاح السورة)، وإسهامها على المستوى العام للسورة، نود أن نطرح سؤالاً وهو: كيف تسهم الضمائر على مستوى كل وحدة على حِدة ؟

بعد أن عرضنا للوحدة الدلالية الأولى، ننتقل إلى وحدة أخرى تتمثل في قصة أهل الكهف، فلم ترد أسماؤهم في السورة، بل ذكرت صفة لهم؛ أصحاب الكهف، فهم نواة هذه القصة ومفتاحها.

وجاءت الضمائر التي تحيل إليهم بعد ذكرهم صراحة "أصحاب الكهف" في (الآية: ٩)، ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، في الكلمات الآتية:

(فقالوا – ربنا – آتنا – لنا – أمرنا – آذانهم – بعثناهم – نبأهم – إنهم – آمنوا – بربهم – وزدناهم – قلوبهم – قاموا– فقالوا – ربنا – ندعو – قلنا – قومنا – فأووا – لكم – ربكم – لكم – أمركم – كهفهم – تقرضهم – وهم – وتحسبهم – وهم – نقلبهم – كلبهم – عليهم – منهم – منهم – بعثناهم – ليتساءلوا – بينهم – منهم – لبثتم – قالوا – لبثنا– قالوا – ربكم– لبثتم – أحدكم – بورقكم – فليأتيكم – بكم – عليكم – يرجموكم – يعيدوكم – تفلحوا – عليهم – عليهم – بهم – عليهم – رابعهم – كلبهم – سادسهم – كلبهم – ثامنهم – كلبهم – بعددهم – يعلمهم – فيهم – فيهم – لبثوا – كهفهم – ازدادوا – لبثوا).

وردت الضمائر التي تحيل إليهم في واحد وسبعين موضعاً على مدى سبع عشرة آية، وكلها تحيل إلى الصفة المذكورة في أول القصة "أصحاب الكهف"، ومن ثم فالمرجعية داخلية سابقة، وقد حققت هذه الضمائر تماسك هذه القصة، فضلاً عن وحدتها الدلالية.

بعد هذا يأتي التعقيب من (٢٧ إلى ٣١)، فنلاحظ تغير حركية الضمائر ومرجعيتها، لتتجه إلى الله تعالى والرسول، والكتاب، والحديث عن الذين آمنوا، والذين كفروا.

أما القصة الثانية "قصة الرجلين" فعناصرها إذاً: الرجلان، ثم كل رجل على حدة، والجنتان. وعليه تعددت مرجعية الضمائر؛ فالعنصر الأول لفظ (الرجلين) جاءت الإحالة إليه في "أحدهما".

أما الرجل المؤمن فضمائره:

(لصاحبه – يحاوره – منك – هو – ربي – أشرك – بربي – ترني – أنا – ربي – يؤتيني).

والرجل الذي جحد ضمائره:

(له – فقال – لصاحبه – وهو – أنا – ودخل – جنته – وهو – لنفسه – قال – أظن – وما أظن – رددت – ربي – لأجدن – له – صاحبه – يحاوره – أكفرت – خلقك – سواك – دخلت – جنتك – قلت – ترني – منك – جنتك – تستطيع – يثمره – فأصبح – يقلب – كفيه – أنفق – ويقول – يا ليتني – أشرك – بربي – له – ينصرونه – وما كان).

أما الجنتان فضمائرهما:

(حففناهما – بينهما – أكلها – خلالهما – هذه – منها – عليها – فتصبح – ماؤها – فيها – وهي – عروشها).

وما نلاحظه أن المرجعية إلى هذه العناصر هي مرجعية داخلية سابقة، وقد أسهمت في تحقيق تماسك القصة، فضلاً عن وحدتها الدلالية.

وأما عن قصة موسى (ع) فعناصرها: (موسى، والفتى، والرجل الصالح).

أما الأول فضمائره:

(لفتاه– أبرح – أبلغ– أمضي – فاتخذ – سبيله – قال – لفتاه – أرأيت – قال – أتبعك – تعلمني – إنك – تستطيع – تصبر – تحط – قال – ستجدني – أعصي – اتبعتني – تسألني – لك – قال – إنك – تستطيع – قال – سألتك – تصاحبني – لدني – قال – وبينك – سأنبئك – تستطع – تسطع).

وأما الفتى فضمائره:

(آتيناه – علمناه – له – أتبعك – تعلمني – علمت – قال – معي – ستجدني – لك – قال – اتبعتني – تسألني – أُحدث – خرقها – أخرقتها – لتغرق – جئت – قال – أقل – معي – تؤاخذني – ترهقني– فقتله – أقتلت – جئت – قال– أقل – معي – سألتك – تصاحبني – بلغت – فأقامه – شئت – لاتخذت – قال – بيني – سأنبئك – فأردت – أعيبها – فعلته – أمري).

مع الإشارة إلى ضمائر مشتركة تحيل إلى موسى وفتاه معاً مثل:

(بلغا – نسيا – حوتهما – جاوزا – آتنا – غداءنا – لقينا – سفرنا – أوينا – فارتدا – فوجدا).

وأخرى تحيل إلى موسى والخضر معاً، مثل:

(فانطلقا – ركبا – فانطلقا – لقيا – فانطلقا – أتيا – استطعما – يضيفوهما – فوجدا).

وقد أسهمت الضمائر بمرجعياتها المختلفة في تحقيق تماسك هذا النص القصصي، فضلاً عن التلاحم الدلالي الحاصل بين أحداث القصة.

وأخيراً قصة "ذي القرنين" وهو العنصر الأساس في هذه القصة، وهناك عناصر أخرى مثل يأجوج ومأجوج، فنجد الضمائر تتحرك باتجاه المحور "ذي القرنين" في:

(منه – له – آتيناه – فاتبع – بلغ – وجدها – ووجد – أن تعذب – تتخذ – قال – نعذبه – وسنقول – أمرنا – أتبع – بلغ – وجد – لك – تجعل – قال – مكني – فأعينوني – أجعل – آتوني – سآوي – قال – جعله – قال – آتوني – أفرغ – قال – ربي – ربي).

أما عناصر يأجوج ومأجوج ففي:

(بينهم – بينهم – اسطاعوا – يظهروه – استطاعوا – بعضهم – فجمعناهم).

وما يمكن ملاحظته هو كلما كان العنصر الرئيس منتشراً وشائعاً في القصة، كلما ازدادت الضمائر التي تحيل إليه، كما حدث مع لفظ الجلالة، والرسول (ص)، والفتية، والرجلين، وموسى، والرجل الصالح، وذي القرنين، فالضمائر لا تتوزع عشوائياً، وإنما بحسب الدلالة التي يريد النص إيضاحها.

كما أن ذكر لفظ الجلالة أو الضمائر التي تحيل إليه كان منتشراً في الوحدات كلها، فكل أجزاء السورة تشترك في هذا العنصر.

وثمة حقيقة لابد من ذكرها هنا، وهي أن الضمائر قد أسهمت بشكل بارز في تحقيق التماسك النصي من خلال المحور العام للسورة، ومن خلال كل وحدة دلالية على حدة مع مراعاة الدلالة المشتركة بينها هي انتصار الجانب المؤمن أو انتصار عنصر الخير على عنصر الشر.

ثالثاً- التوابع:

بعد أن عرفنا أن موضوعات السورة الكريمة وقصصها متماسكة معنوياً، نريد الآن معرفة ما وظيفة التوابع في تحقيق التماسك النصي لكل موضوع من هذه الموضوعات؟

لنبدأ بتحليل النص المرتبط بأهل الكهف، إذ يظهر أن القصة كلها ملخصة في الآيات الآتية:

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (الآيات: ١٠-١١-١٢).

نلاحظ أن الروابط الموجودة هنا تتمثل في العطف في الآية (١٠) بالفاء والواو، وهو ربط بين أربع جمل: (أوى الفتية)، (فقالوا ربنا)، (آتنا من لدنك رحمة)، (وهيئ لنا من أمرنا رشداً)، ثم يحدث التماسك بين العاشرة والحادية عشرة بالفاء التي وقعت في جواب الطلب أو الدعاء: (فضربنا)، ويظهر التماسك الدلالي كذلك في جواب الطلب نفسه.

وهناك رابط آخر يتمثل في قوله تعالى: ﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴾؛ إذ تُقدّر بـ "سنين نعدها عدداً"، وفي هذا نعت لسنين.

ثم يربط بين الآية الحادية عشرة والثانية عشرة بالعطف بـ (ثُم): ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

إذاً حدث التماسك بين هذه الآيات الثلاث التي تمثل موجزاً لقصة أهل الكهف عن طريق العطف والنعت.

ثم تأتي جملة اعتراضية بين الثانية عشرة والثالثة عشرة لتؤكد أن هذه القصة حق:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الآية: ١٣).

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الآية: ١٤).

فحدث التماسك بين (آمنوا)، و(زدناهم) في (١٣) ، ثم بين (١٣) و (١٤) بواو العطف (وربطنا)، وبين (قاموا) و (قالوا) بالفاء، و (شططاً) هي صفة لمصدر محذوف، والتقدير: قولاً شططاً.

ثم ينقل قول أهل الكهف في قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (الآية: ١٥).

ويضيفه إلى رغبتهم في اعتزال القوم الظالمين عن طريق حرف العطف الواو:

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ (الآية: ١٦).

والحديث كله موجه إلى رسول الله (ص) كما هو واضح في الآيات (١٧، ١٨)، إذ أن الحديث تغيّر من الغيبة في الآيات السابقة إلى الخطاب في هاتين الآيتين، ليصف وضعهم في الكهف:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (الآية: ١٧).

فقد عطف بين الجملتين داخل الآية بالواو: (إذا طلعت وإذا غربت)، وكذلك بين (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)، مع وجود نعت في قوله تعالى: ﴿وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

ثم يربط بين الآيتين (١٧–١٨) بالواو في قوله تعالى:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ...﴾ (الآية: ١٨).

ثم يتحول الكلام إلى أسلوب المتكلم:

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ...﴾ (الآية: ١٨).

ثم يتحول مرة أخرى إلى أسلوب الخطاب:

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (الآية: ١٨).

ثم يعود إلى أسلوب المتكلم، ليصف مرحلة بعثهم من رقادهم الطويل:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الآيتان: ١٩–٢٠).

ولا يخفى ما في هاتين الآيتين من تماسك دلالي يتمثل في وصف ساعة بعثهم، وتماسك شكلي عن طريق العطف بالواو والفاء، هذا فضلاً عن مرجعية الضمائر وغيرها من وسائل التماسك النصي.

ثم يعطف بين وصف هذه الساعة وساعة العثور عليهم، مع العلم بوجود جمل مقدرة بين هذين الوصفين تترك لخيال القارئ (متلقي النص)، المهم أن هناك تماسكاً بين: الآيات السابقة والآية (٢١):

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ (الآية: ٢١). وتوجد كذلك روابط العطف داخل الآية نفسها.

ثم ينتقل النص القرآني ليصف أقوال الناس عن عددهم في الآية (٢٢) مستعملاً أسلوبي النعت والعطف:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا * وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (الآيات: ٢٢-٢٣-٢٤)، ثم يربط هذه بالحلقة الأخيرة من القصة بالعطف لما سبق بالآية (٢٥): ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وهكذا تتماسك القصة نصياً عن طريق نوعين من التماسك النصي هما: التماسك الدلالي، والتماسك الشكلي عن طريق عدة وسائل للتماسك النصي؛ منها: العطف والنعت.

ثم يعقّب على هذه القصة بآيات ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، يتمثل في العبرة من القصة؛ في أنه إذا كان هذا موقف الفتية في الصبر على الاعتزال عن الناس وعن الشهوات حفاظاً على دينهم، فإنه من الطبيعي أن يكون موقف الرسول (ص) ليس أقل منهم، بل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ...﴾ (الآيتان: ٢٨-٢٩).

ويربط كذلك القصة ببيان عقاب الظالمين وثواب المؤمنين في الآيات: (٢٩-٣٠-٣١)، ليبدأ من بعد قصة الجنتين ليوضح فيهما أنموذجاً آخر يبين فيه عقاب الظالم وثواب المؤمن، ففُصّلت هذه القصة في ثلاث عشرة آية، وقد استُعمِلت فيها ستة وعشرون حرف عطف، ونعت واحد، وذلك لتحقيق التماسك بين كلمات القصة وعباراتها وجملها وآياتها.

فمن أمثلة استعمالها للربط بين الكلمات قوله تعالى:

﴿... إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (الآية: ٣٩).

ومن أمثلة الربط بين العبارات قوله تعالى:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (الآية: ٣٧).

ومن أمثلة الربط بين الجمل قوله تعالى:

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (الآية: ٣٢).

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ (الآية: ٣٣).

﴿... أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الآية: ٣٤).

﴿... أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (الآية: ٣٧).

﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (الآية: ٤٠).

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الآية: ٤٢).

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (الآية: ٤٣).

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (الآية: ٤٤).

أما أمثلة الربط بين الآيات فمنها قوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ...﴾ (الآية: ٣٢).

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الآية: ٣٤).

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (الآية: ٣٥).

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ...﴾ (الآية: ٣٦).

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ...﴾ (الآية: ٣٩).

﴿... فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (الآيتان: ٤٠-٤١).

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ...﴾ (الآية: ٤٢).

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (الآية: ٤٣).

هذه هي الروابط التي تحقق التماسك النصي من الناحية الشكلية، ومن الناحية الدلالية، فإن وحدة الموضوع في هذه القصة يكفل تحقيق التماسك الدلالي لها، وقد أبانت هذه القصة مثل سابقتها ثواب الخير وعقاب الشر، وهذا رابط دلالي آخر، يحقق التماسك بين هذه القصة والسابقة لها.

الخاتمة:

مما تقدم يظهر أن نص سورة الكهف متماسك من جهة اللفظ والمعنى، فمن حيث المعنى دار موضوعها حول محور فكري وهو نبذ زينة الحياة الدنيا، وأثبت أن الغلبة للخير دائماً، ومن حيث اللفظ فقد اشتملت على عناصر التماسك النص وهي: التكرار، والإحالة، والتوابع، وكلها جاءت من أجل بناء سوري محكم، يصب في خدمة الجانب المعنوي للسورة الكريمة.

الهوامش:

[١]- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (مسك): ٤٨٨/١٠.

[٢] – المصدر نفسه، (مسك): ١٠/ ٤٨٩-٤٩٠.

[٣] – تاج العروس، الزبيدي، (مسك): ١٣/ ٦٤٣.

[٤] – أساس البلاغة، الزمخشري، (م س ك): ٩٠٠.

[٥] – Text and Discourse Analysis, Cohesion in English, P: XI، نقلاً عن بحث: التماسك النصي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة.

[٦] – ينظر: في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل: ١٨٥.

[٧] – ينظر: التماسك النصي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة، (بحث) بخولة بن الدين، مجلة عود الند، س٧، ع٨٠ ، (انترنت: www.oudnad.net).

[٨] – ينظر: التماسك النصي في الحديث النبوي الشريف، د. عبدالعزيز فتح الله عبدالباري:٢.

[٩] – بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل: ٢٦٤.

[١٠] – علم اللغة والدراسات الأدبية، شبلز: ١٨٤.

[١١] – ينظر: التماسك النصي في الحديث النبوي الشريف: ٢.

[١٢] – ينظر: علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد: ١٨٩.

[١٣] – ينظر: التماسك النصي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة، (انترنت).

[١٤] – ينظر: آليات التماسك النصي، (بحث) عمران رشيد، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية: ٢٠.

[١٥] – ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني: ٥٥/٣.

[١٦] – ينظر: المصدر نفسه: ٥٥/٣.

[١٧] – ينظر: علم اللغة النصي، صبحي إبراهيم الفقي: ٢/ ٢٠.

[١٨] – ينظر: المصدر نفسه: ١٧.

[١٩] – ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ١٩٩/١-٢٠٠.

[٢٠] – ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٠/١.

[٢١] – ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ٢٠١/١-٢٠٢.

مصادر البحث:

- القرآن الكريم.
- أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، ط/١، بيروت، ١٤٢٢ هـ.
- آليات التماسك النصي، (بحث) عمران رشيد، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، السنة الثانية، العدد الأول ٢٠١١.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).
- التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني.
- التماسك النصي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة، (بحث) بخولة بن الدين، مجلة عود الند، س٧، ع٨٠ ، (www.oudnad.net).
- التماسك النصي في الحديث النبوي الشريف، د. عبد العزيز فتح الله عبد الباري، (د . ت) ، (د . ط) .
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة.
- علم اللغة والدراسات الأدبية، شبلز، برند، الدار الفنية للنشر والتوزيع، تاريخ النشر: ١٩٩١م.
- علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، ط/ ٢، ٢٠٠٩ م.
- في اللسانيات ونحو النص، الدكتور إبراهيم محمود خليل، دار المسيرة، ٢٠٠٩م.
- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، ط/١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ هـ.